

## اتزان الكلام

لا يكون الرجل متصفاً بالسمت الحسن حتى يتصف بالرزانة في كل شيء، ومن الرزانة اتزان الكلام، فإن رفع الصوت في المخاطبة والملاحاة ليس بمحمود، وهو داخل في باب الصوت المنكر الذي يضع من قيمة صاحبه؛ قال الله - سبحانه - : ﴿وَأَغْضَضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

قال ابن كثير - رحمه الله - : « ﴿وَأَغْضَضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ ، أي لا تبالغ في الكلام، وترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال : ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ » .

قال مجاهد وغير واحد : « ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي : غاية من رفع صوته أن يشبه بالحمير في علوه ورفعه - وهو مع هذا بغيض إلى الله ، وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه ، وذمه غاية الذم<sup>(١)</sup> .

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣٠).

وقال ابن سعدي - رحمه الله - : ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ ، أدباً مع الناس ومع الله ، ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ ﴾ ، أي أخرجها وأبشعها ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة أو مصلحة لما اختص الحمار بذلك الذي علمت خسته وبلادته<sup>(١)</sup> .

وقال ابن قتيبة : « عَرَفَهُ قُبْحُ رَفْعِ الْأَصْوَاتِ فِي الْمَخَاطَبَةِ بِقُبْحِ أَصْوَاتِ الْحَمِيرِ ؛ لِأَنَّهَا عَالِيَةٌ »<sup>(٢)</sup> .

وقال ابن زيد : « لو كان رفع الصوت خيراً ما جعله الله للحمير ، وقال سفيان الثوري : « صِيَاحُ كُلِّ شَيْءٍ تَسْبِيحٌ لِلَّهِ إِلَّا الْحِمَارُ ؛ فَإِنَّهُ يَنْهَقُ بِلَا فَائِدَةٍ »<sup>(٣)</sup> »<sup>(٤)</sup> .

(١) « تيسير الكريم الرحمن » لابن سعدي (٦ / ١٦٠) .

(٢) « الآداب الشرعية » (٢ / ١١١) .

(٣) قال شيخنا الجليل عبد العزيز البرعي - حفظه الله - : « إن نهيق الحمار يستفاد منه فائدة خير من جليس السوء ؛ وذلك بأن الحمار إذا نهق ذكرك أن تستعيز بالله من الشيطان كما جاء في الحديث الأمر بالاستعاذة عند نهيق الحمار » .

(٤) « الآداب الشرعية » (٢ / ١١١) .

ولئن كان خفض الصوت وعدم رفعه عن القدر المعتاد جميل مع كل أحد فهو مع أهل الفضل والعلم والدين أجَلُّ.

وقد كان بعض الصحابة يرفعون من أصواتهم في حضرة النبي ﷺ ، فأنزل الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات: ٢).

وهذا أدب مع رسول الله ﷺ فأمر الله - سبحانه وتعالى - الصحابة أن يحفظوا أصواتهم عنده تعظيماً وتكريماً وإجلالاً، ويرى بعض أهل العلم أن من الأدب مع رسول الله ﷺ خفض الصوت عند سماع حديثه بعد مماته كما هو في حياته، ويدخل في هذه الآية خفض الرجل صوته مع من هو أعلى منه مكانة.

ومما جاء في صفة النبي ﷺ في التوراة أنه لم يكن صخاباً أي عالي الصوت، ولم يكن - أيضاً - خافتاً في

صوته ولكن كان بين ذلك فينبغي التشبه به ، في سمته  
وهديه وفي شأنه كله إلا ما كان من خصائصه ؛ فعن  
عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : «إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي  
فِي الْقُرْآنِ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾  
(الاحزاب: ٤٥) ، قَالَ فِي التَّوْرَةِ : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ  
شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَحَرْزًا<sup>(١)</sup> لِلْأُمِّيِّينَ<sup>(٢)</sup> ، أَنْتَ عَبْدِي  
وَرَسُولِي سَمِيَّتَكَ الْمُتَوَكَّلُ<sup>(٣)</sup> ، لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا  
سَخَابٍ<sup>(٤)</sup> بِالْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو  
وَيَصْفَحُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بَأَنَّ  
يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَأَذَانًا صُمًّا ،  
وَقُلُوبًا غُلْفًا<sup>(٥)</sup> .

(١) حرز: أي عصمة.

(٢) الأميين: العرب.

(٣) المتوكل من أسماء النبي ﷺ سُمِّيَ بِهِ لِقَنَاعَتِهِ بِالْيَسِيرِ وَالصَّبْرِ عَلَى  
مَا كَانَ يَكْرَهُ ، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (٨ / ٤٥٠) .

(٤) سخاب وصخاب: عالي الصوت.

(٥) رواه البخاري (٤٨٣٨) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه يوصي طالب العلم: ينبغي  
 لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا،  
 ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلًا ولا  
 صخابًا ولا صيَّاحًا ولا حديدًا<sup>(١)</sup> «<sup>(٢)</sup>» .




---

(١) الحديد يعني الشديد الغليظ .

(٢) «الفوائد» (١٤٤) .

## حسن الاستماع

متى أقبل المرء على محدثه بالإصغاء إليه بالأذان، وطرف العين، وحضور القلب، وإشراقة الوجه فقد تحلى بالسمت الحسن الذي لا خيار فيه ولا عثار، فحسن الاستماع من أخلاق الرجل النبيل ذي المروءة والأدب وكرام الناس يراعون هذا الأدب.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «الجليسي عليّ ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له في المجلس إذا جلس وأن أصغي إليه إذا تحدث»<sup>(١)</sup>.

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «ثلاثة لا أملهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رجلي»<sup>(٢)</sup>.

(١) «عيون الأخبار» (١/٣٠٧).

(٢) المرجع السابق (١/٣٠٦).

وروى ابن حبان بسنده إلى معاذ بن سعيد الأعور - رحمه الله - أنه قال: «كنتُ جالسًا عند عطاء بن أبي رباح، فحدث رجل بحديث فعرض رجل من القوم في حديثه، قال: فغضب، وقال: ما هذا الطباع؟ إني لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلم به، فأريه كأني لا أحسن شيئاً»<sup>(١)</sup>.

وقال: «إنَّ الشاب ليتحدث بالحديث فأسمع له كأني لم أسمع، ولقد سمعته من قبل أن يولد»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحسن: «إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلِّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحدٍ حديثه»<sup>(٣)</sup>.

وأوصى خالد بن يحيى ابنه، فقال: «يا بُنَيَّ إذا حدثك جليساك حديثًا فأقبل عليه، وأصغ إليه، ولا تقل

(١) «روضة العقلاء» (ص ٧٢)، و«تذكرة السامع والمتكلم» (ص ١٠٥).

(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ١٠٥).

(٣) «المتقى» (ص ١٥٥).

قد سمعته وإن كنت أحفظ منه، فإن ذلك يكسبك المحبة والميل إليك»<sup>(١)</sup>.

وعن إبراهيم بن الجنيد - رحمه الله - أنه قال: «قال حكيم لابنه: يا بُني تعلّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، فإن حسن الاستماع إمهالك المتكلم حتى يفضي إليك بحديثه، والإقبال بالوجه والنظر، وترك المشاركة بحديث أنت تعرفه»<sup>(٢)</sup>.

ومن درر ابن المقفع قوله: «تعلّم حُسْنَ الاستماع كما تتعلّم حُسْنَ الكلام، ومن حُسْنِ الاستماع إمهال المتكلم حتى يَنْقُضِي حديثه، وقِلَّة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم، والوعْي لما يقول: واعلم، فيما تكلم به صاحبك، إن مما يُهَجِّنُ صواب ما يأتي به، ويذهب بِطَعْمِهِ وَبَهْجَتِهِ، وَيُزْرِِي به في قبوله،

(١) «بهجة المجالس» لابن عبد الله (١/٤٣).

(٢) «الفقيه والمتفقه» (ص ١٣٦).

عَجَلْتِكَ بِذَلِكَ، وَقَطَعْتَ حَدِيثَ الرَّجُلِ قَبْلَ أَنْ يُفْضِيَ  
إِلَيْكَ بِذَاتِ نَفْسِهِ<sup>(١)</sup> «<sup>(٢)</sup>» .

وقال - أيضاً - : «وإذا رأيت رجلاً يحدث حديثاً قد علمته، أو يخبر خبراً قد سمعته، فلا تشارك فيه، ولا تتعقبه عليه حرصاً على أن يعلم الناس أنك قد علمته، فإن ذلك خفة، وسوء أدب وسخف»<sup>(٣)</sup> .

وقال : «من الأخلاق التي أنت جدير بتركها - إذا حدث الرجل حديثاً تعرفه ألا تسابقه، وتفتحه عليه، وتشاركه، حتى كأنك تظهر للناس أنك تريد أن يعلموا أنك تعلم مثل الذي يعلم، وما عليك إلا أن تهنته بذلك، وتفرد به، وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثير»<sup>(٤)</sup> .

(١) يفضي إليك بذات نفسه: أي يكشف لك مكنون صدره .

(٢) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص ١٢٩ ، ١٣٠) .

(٣) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص ١٣٦) .

(٤) المرجع السابق (ص ١٦٨) .

ومن السمت الحسن إذا سألك أحد فلا تعجل إلى  
جواب، ولا تهجم على سؤال؛ فإن ذلك رعونة  
وطيش، والبصير العاقل يستفهم قبل الجواب، ويبدأ  
جوابه بمقدمة حسنة، كالثناء على الله وعلى رسوله،  
ثم يجيب بجواب لا ريث فيه ولا عجل، فذلك أدعى  
لوقار الكلمة وجلال المتكلم.



## تجنب الإلحاح

الإلحاح مناف للسمت الحسن بل إنه مناف للوقار مناف للسكينة مناف للمروءة، وانظر أَمَنْ يَطْلُبُ إِلَيْكَ بِالْإِجْمَالِ والتكرم أحق أن تسخو نفسك له بطلبته أم مَنْ يَطْلُبُ إِلَيْكَ بِالْإِلْحَاحِ؟

فإذا كانت لك إلى أخيك حاجة فصن نفسك عن الإلحاح؛ فإنك متى ألححت عليه في الطلب أحدث لك في قلبه رِقَّةً شَانٍ وسخف مَزَلَّةً.

ومتى ألححت على أخيك فربما أعطاك من غير طيب نفس فلم يبارك لك فيه<sup>(١)</sup>.

---

(١) أخرج البخاري في «صحيحه» (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فاعطاني، ثم سأله، فاعطاني، ثم سأله فاعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس - أي بغير شره ولا إلحاح، وبغير سؤال - بُورِكَ له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس =

وربما أعطاك من الوعود ما لا طاقة له بالوفاء فترك  
الإلحاح أمحض في التكرم وأبرأ من الدنس .

فإذا طلبت إلى أخيك حاجة، أو قرصة، أو شفاعة،  
أو دعوة، أو أي شيء كان فجميل أن يكون طلبك بكلمة  
واحدة تزينك خير من إلحاح يشينك، وما هو كائن سيكون  
بقضاء الله وقدره وما لا يكون فلا يكن بإلحاح ومهانة .

وربما من تلح عليه تصرف معك تصرفات غيرك أحوج  
إليها منك؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما جاء قتل زيد بن  
حارثة وجعفر وعبد الله بن رواحة جلس النبي صلى الله عليه وسلم  
يُعرف فيه الحزن - وأنا أطلع من شق الباب - فأتاه رجل  
فقال: يا رسول الله إن نساء جعفر - وذكر بكاءهن - فأمره

---

= - أي طمع النفس فيه، وتطلعها إليه - لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا  
يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى، قال حكيم: قلتُ: يا رسول  
الله، والذي بعثك بالحق لا أرأأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا .

أن ينهاهن، فذهب الرجل، ثم أتى فقال: قد نهيتهن،  
 وذكر أنهن لم يطعنه، فأمره الثانية أن ينهاهن، فذهب  
 الرجل، ثم أتى فقال: قد نهيتهن، وذكر أنهن لم يطعنه،  
 فذهب ثم أتى فقال: والله لقد غلبني - أو غلبنا - فزعمت  
 أن النبي ﷺ قال: «فاحث في أفواههن التراب»، فقلت:  
 أرغم الله أنفك فوالله ما أنت بفاعل، وما تركت رسول الله  
 ﷺ من العناء»<sup>(١)</sup>.

ومن درر الإمام سفيان الثوري - رحمه الله - قوله:  
 «الإلحاح لا يصلح، ولا يجمل إلا على الله - عزَّ  
 وجلَّ»<sup>(٢)</sup>.



(١) رواه البخاري (١٣٠٥).

(٢) الآداب الشرعية (٢/٢٨٦).

## الجد

١ - المسلم بناء أمره على الجد:

الجد وحسن السمات صنوان لا يفترقان، والمسلم بناء أمره على الجد، فيولي وجهه شطر معالي الأمور وينأى بنفسه عن سفاسفها، وهزلها، وليس معنى أن يكون الرجل شديداً حديداً ولكنه الاعتدال وعدم الخلط بالجد هزلاً ولا بالهزل جدًا.

كالمزاح ينبغي الإقلال منه وعدم الإسفاف والتمادي فيه.

٢ - صور من مزاح النبي ﷺ:

وقد كان النبي ﷺ يمزح ومزاحه ﷺ جزءاً من تربيته لأصحابه والتحبب إليهم؛ فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا قال: «إني لا أقول إلا حقاً»<sup>(١)</sup>.

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٨٣٦٦)، والترمذي (١٩٩٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٦).

قال المباركفوري - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: «والأظهر أن منشأ سؤالهم أنه ﷺ نهاهم عن المزاح كما سيجيء في باب المراء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إني لا أقول إلا حقاً؛ أي: عدلاً وصدقاً لعصمتي عن الزلل في القول والفعل، ولا كل أحد منكم قادراً على هذا الحصر؛ لعدم العصمة فيكم»<sup>(١)</sup>.

وقد كان النبي ﷺ يمزح - أحياناً - ومن مزاحه ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير ما فعل النغير»<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية عن أنس أن النبي ﷺ كان يدخل على أم سليم ولها ابن من أبي طلحة يكنى: أبا عمير، وكان يمازحه فدخل فرآه حزيناً فقال: «ما لي أرى أبا عمير حزيناً؟»

(١) «تحفة الأحوذى» (٥ / ٤٠٠).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٩).

فقالوا: مات نغره الذي كان يلعب به، فقال: فجعل يقول: «أبا عمير ما فعل النغير؟»<sup>(١)</sup>.

فانظر أخي إلى مزاحه ﷺ فتجد البهاء والجلال فتزداد له حباً وتوقيراً، فالحق حليته، والصدق - الذي هو عنوان الجد - دثاره، والتحبب شعاره.

ومزاحه ﷺ كثير الفوائد عظيم العوائد؛ فقد ذكر القاضي عياض - رحمه الله - ستين فائدة من فوائد هذا الحديث (أي حديث أبي عمير لخصها ابن حجر في الفتح)<sup>(٢)</sup>.

### ٣ - أقسام المزاح:

وينقسم المزاح إلى قسمين:

١ - محمود: وضابطه كما قال ابن حبان: «هو الذي لا تشوبه ما كره الله - عز وجل - ولا يكون يائماً، ولا قطيعة رحم»<sup>(٣)</sup>.

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٨٤٨٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٢٨).

(٢) «فتح الباري» (٢٢٧/١٢). (٣) «روضة العقلاء» (ص ٧٧).

٢ - مذموم: وضابطه كما قال ابن حبان - أيضاً -: «الذي يثير العداوة ويذهب البهاء، ويقطع الصداقة، ويجرئُ الدنيءَ عليه، ويحقق الشريفَ به»<sup>(١)</sup>.

ومن فوائد المزاح المحمود كما قال بعضهم: «يُسَلِّي الهمَّ، ويرقِّعُ الخُلَّةَ»<sup>(٢)</sup>، ويحيي النفوسَ، ويميل قلوبَ الناسِ إليه»<sup>(٣)</sup>.

وكتب بعضهم إلى صاحبٍ له: «ولنا بعد مذهب في الدعابة جميلٌ لا يشوبه أذىٌ ولا قذىٌ، يخرج إلى الأنس من العبُوسِ، وإلى الاسترسال من القطوب، ويلحقنا بأحرار الناس وأشرفهم، الذين ارتفعوا عن لبسة الرياء والتَّصنع»<sup>(٤)</sup>.

(١) المرجع السابق (ص ٧٧).

(٢) الخُلَّة: - بضم الخاء - الصداقة، أي يرقِّعُ ويصلح من الصداقة والمودة ما مزقته الملالة والسَّأم.

(٣) «مسافر في قطار الدعوة» (ص ٢٤٧).

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٧٤).

ومن مخاطر المزاح المذموم: إفسادُ المودَّة، وإيغار الصدُّور، وإثارةُ العداوة، وذهابُ البهاء، وتجريئةُ الدُّنيء، وحقْدُ الشريف، وإحياءُ الضَّغينة<sup>(١)</sup>.

وهذا ما حدَّ مَسْعَرُ بْنُ كُدَّامٍ إلى أن ينصح ابنه كُدَّامًا قائلاً:  
إِنِّي نَحَلْتُكَ<sup>(٢)</sup> - يَا كُدَّامُ - نَصِيحَتِي

فاسْمَعْ مَقَالَ أَبِ عَلِيكَ شَفِيقِ

أَمَّا الْمَزَاحَةُ وَالْمَرَاءُ فَدَعُهُمَا

خُلُقَانِ لَا أَرْضَاهُمَا لِصَدِيقِ

إِنِّي بَلَوْتُهُمَا<sup>(٣)</sup> فَلَمْ أَحْمَدُهُمَا

لِمَجَاورٍ جَارًا وَلَا لِشَقِيقِ<sup>(٤)</sup>

وفي بعض منشور الحكم: «المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الخطب»<sup>(٥)</sup>.

(١) «روضة العقلاء» (ص ٧٧-٨٠).

(٢) نَحَلْتُكَ: من النَحْلَةِ، وهي العطيةُ الخالصة على وُدٍ وتكريم.

(٣) بَلَوْتُهُمَا: اختبرتها وجربتها.

(٤) «روضة العقلاء» (ص ٧٨-٨٩).

(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٣١٠).

وقال بعض الحكماء: «من كثر مزاحه زالت هيئته»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عبد البر - رحمه الله -: «وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح؛ لما فيه من ذميم العقابة، ومن التوصل إلى الأغراض، واستجلاب الضغائن، وإفساد الإخاء»<sup>(٢)</sup>.

وكان يقال: لكل شيء بدء، وبداء العداوة المزاح، وكان يقال: لو كان المزاح فحلاً ما ألحق إلا الشر»<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو هفان:

مازح صديقك ما أحبّ مزاخاً

وتوقُّ منه في المزاح جماحاً

فلربما مزح الصديق بمزحةٍ

كانت لبابِ عداوةٍ مفتاحاً<sup>(٤)</sup>

(١) المرجع السابق (ص ٣١٠).

(٢)، (٣) «بهجة المجالس» (ص ٥٦٩).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٥٧٠).

وصفوة القول أن المزاح لا ينبغي الإكثار منه، ولا الإسفاف، فيه أما ما عدا ذلك فيحسن؛ لما فيه من إيناس المجلس، وإزالة الوحشة، ونفي الملل والسآمة، وإنما المزاح في الكلام كالملح في الطعام، إن عدم أو زاد على الحد فهو مدموم<sup>(١)</sup>.

أَفِدْ طَبْعَكَ الْمَكْدُودَ<sup>(٢)</sup> بِالْجِدِّ رَاحَةً

يَجْمُ، وَعَلَّلَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَزْحِ

«وَلَكِنْ إِذَا أُعْطِيَ تَهُ الْمَزْحُ، فَلْيَكُنْ

بِمَقْدَارٍ، مَا تُعْطِي الطَّعَامَ مِنَ الْمَلْحِ<sup>(٣)</sup>

٤ - لا تمازح هؤلاء:

يحسن مراعاة أحوال الناس وتوخي طباعهم؛ فإن من الناس من يجره المزاح إلى الأذى ولا بأس من ذكر من لا يحسن المزاح معهم:

(١) «بهجة قلوب الأبرار» لابن سعدي (ص ٧٠).

(٢) المكدود: المتعب المُرَهَق من شدة العمل.

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ٣١١).

### (أ) الغرياء:

لا تمازح غريباً لا يعرفك فينزلك غير منزلتك، قال أبو عبد الرحمن الأعرج: «كان إبراهيم بن أدهم يحدثنا ويضاحكنا، وإذا رأى غريباً قال هذا جاسوس»<sup>(١)</sup>.

وقال سعيد بن العاص: «لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيا فيجتري عليك»<sup>(٢)</sup>.

### (ب) الصبيان:

كذلك الصبيان يحسن التحفظ من المزاح معهم، فربما كان فيهم واقعاً يظن أنك لم تمازحه إلا لهوانك عليه، ولكن من عرفت طبعه وحسن أدبه فلا تبخل عليه بمزحة تجعله يحبك ويأنس إليك؛ فعن محمد بن المنكدر قال: قالت لي أُمِّي وأنا غُلامٌ: «لا تمازح الغلمان فتھون عليهم»<sup>(٣)</sup>.

(١) «روضة العقلاء» (ص ١٣١).

(٢) «بهجة المجالس» (٥٦٩/٢).

(٣) «روضة العقلاء» (ص ٨٠).

(ج) العلامة:

لا ينبغي لطالب العلم ومن يُقْتَدَى به المزاح بحضور العوام؛ «وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصاً في أمرٍ مباح كالزجاج هان عندهم، فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم، فقد قال بعض السلف: كنّا نمزح ونضحك، فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك».

وقال سفيان الثوري: تعلموا هذا العلم وأكثموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب، فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر، وقد قال عليه السلام لعائشة: «لَوْلَا حَدَّثَانِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَنَقَضْتُ الْكُعْبَةَ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ»<sup>(١)</sup>، وقال أحمد ابن حنبل في الركعتين قبل المغرب: رأيت الناس يكرهونها فتركتهما، ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء إنما هذا صيانة للعلم.

(١) رواه البخاري (١٥٨٣)، ومسلم (١٣٣٣).

وبيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسرة يأكلها قلَّ عندهم وإن كان مباحاً، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الأمر بالحمية، فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظاً لهم، ومتى أراد مباحاً فيستتر به عنهم<sup>(١)</sup>.

وقال ابن المقفع: «البس للناس لباسين ليس للعاقل بُدٌّ منهما، ولا عيش ولا مُروءة إلا بهما: لباس انقباض واحتجاز من الناس، تلبسه للعامة فلا يلقونك إلا مُحَفَّظاً مُتَشَدِّداً مُتَحَرِّزاً مُسْتَعِداً، ولباس انبساط واستئناس، تلبسه للخاصة الثقات من أصدقائك فتلقاهم بذات صدرك وتُفْضِي إليهم بمصون حديثك وتضع عنك مَوْنَةَ الحذر والتَّحَفُّظِ فيما بينك وبينهم، وأهل هذه الطبقة، الذين هم أهلها، قليل من قليل حقاً؛ لأن ذا الرأي لا يُدْخِلُ من

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ١٨٣).

نَفْسِهِ هَذَا الدَّخَلَ إِلَّا بَعْدَ الْاِخْتِبَارِ وَالتَّكْشُفِ<sup>(١)</sup>، وَالثَّقَّةِ بِصَدَقِ النَّصِيحَةِ وَوَفَاءِ الْعَهْدِ<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن حَبَّان: «مَنْ مَازَحَ رَجُلًا مِنْ غَيْرِ جَنْسِهِ، هَانَ عَلَيْهِ، وَاجْتَرَأَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الْمَزَاحُ حَقًّا؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَا يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَ بِهِ غَيْرَ مَسْلِكِهِ، وَلَا يَظْهَرُ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِهِ، عَلَى أَنِّي أَكْرَهُ اسْتِعْمَالَ الْمَزَاحِ بِحَضْرَةِ الْعَامَّةِ، كَمَا أَكْرَهُ تَرْكَهُ عِنْدَ حُضُورِ الْأَشْكَالِ»<sup>(٣)</sup>.

(د) (الأعداء):

لَا يَحْسَنُ وَلَا يَجْمَلُ الْمَزَاحُ مَعَ الْأَعْدَاءِ لَمَّا يَقُودُ إِلَى مَفْسَدَةٍ تُوْذِيكَ، وَرَبَّمَا قَدَحْتَ زَنْدَ الْإِحْنِ فِي صَدُورِهِمْ فَلَاقَيْتَ مِنْهُمْ بَعْضَ مَا تَكْرَهُ.

(١) التَّكْشُفُ: إِظْهَارُ مَا فِي النَّفْسِ.

(٢) «الْأَدَبُ الصَّغِيرُ وَالْأَدَبُ الْكَبِيرُ» لِابْنِ الْمَقْفَعِ (ص ١٠٥-١٠٦).

(٣) «رَوْضَةُ الْعُقْلَاءِ» (ص ٨١).

قال الماوردي - رحمه الله - : «وليحذر أن يسترسل في  
ممازحة عدو فيجعل له طريقًا إلى إعلان المساويء، وهو  
مجددٌ، ويفسح له في التشفّي مزحًا وهو مُحِقٌّ، وقد قال  
بعض الحكماء: إذا مازحت عدوك ظهرت له عيوبك»<sup>(١)</sup>.

### ٥ - إذا لسعتك مزحة فتوقر:

من اللباقة أن تُحسن التصرف مع من يُخطئ معك  
في مزحه حسب ما يناسب المقام من ردٍّ مُفحِّم، أو  
تحديق النظر فيه، أو غير ذلك، واحترس من سورة<sup>(٢)</sup>  
الغضب واعلم أن الكرام هم أصبر نفوسًا، وأشرف  
همةً، وإعراضك عن الجاهل محض في التكرم وأبرأ من  
الدنس وأنزله.



(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٣١٣).

(٢) سورة كل شيء شدته وحدته.

## ترك الفضول

من حسن السميت ترك بعض الفضول؛ فمن ذلك فضول الكلام، وفضول النظر، وفضول المخالطة، وفيما يأتي الحديث عن فضول الكلام ثم ذكر الباقي:

أولاً . فضول الكلام:

وفضول الكلام لا خير فيه البتة، منه ما هو مضرّة محضّة، فمتى علم المرء أن كل كلمة تكتب له أو عليه، أمسك عن كثير من كلامه وما يعقلها إلا العالمون، ومتى تم عقل المرء قل كلامه، ومن أمثال العرب: «ترك الفضول تكمل العقول».

وما أكثر الأدلة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ التي تحث على ترك الفضول والإمساك عن كثير من الكلام فمنها:

- قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٨)، ومعنى ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ ،

أي خير وشر، ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾ مراقب له يسجل كل كلمة يتلفظ بها.

وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾  
(النساء: ١١٤).

قال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله -: «أي لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون وإذا لم يكن فيه خير، فإما ما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضه كالكلام المحرم بجميع أنواعه»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:  
«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن حجر - رحمه الله -: «وهذا من جوامع الكلم؛ لأن القول كله إما خير وإما شر، وإما آيل إلى

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص ١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

أحدهما، فدخل في الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وتنبها فأذن فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه، وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلى الشر فأمر عند إرادة الخوض لزوم الصمت»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:  
«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» <sup>(٢)</sup>.

ومعنى الحديث أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا  
يهمه أمره، فإن الإقبال على ذلك بالقول أو الفعل فضول  
لا منفعة منه أصلاً.

وقلّ أن يندم رجل على ترك الفضول، لكن المتكلم فيما لا يعنيه هو الذي قد ندم مراراً، وقلّ أن تجد رجلاً اجتمع له مع الهذر حسن السمات بل إن ذلك لا يكاد يوجد.

(١) «فتح الباری» (١٢ / ٦٠).

(٢) حسن: أخرجه الترمذی (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

وإن الناظر إلى إمساك السلف عن فضول الكلام ليرى عجباً؛ فهذا الحسن البصري - رحمه الله - يقول: «لقد أدركت أقواماً إن كان الرجل منهم ليجلس مع القوم فيروه عيياً - أي من طول صمته - وما به عي، إنه لفقيه مسلم»<sup>(١)</sup>.

وقال عطاء: «كانوا - أي السلف - يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه أو أمراً بالمعروف أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لا بد لك منه»<sup>(٢)</sup>.

إن كان يعجبك السكوت فإنه

قد كان يعجب قبلك الأخيارا

ولئن ندمت على سكوت مرة

فلقد ندمت على الكلام مراراً<sup>(٣)</sup>

(١) «صحيح الزهد» للإمام وكيع بن الجراح (ص ٥٥).

(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/٦٦).

(٣) «روضة العقلاء» (ص ٤٣).

## ثانيًا - فضول النظر:

ليس من حسن السمات قلب النظر في كل غادر ورائع، وغير ذلك كالقصور والدور وكل مركوب، وغير ذلك من المتاع.

وقد نهى الله - سبحانه وتعالى - عن قلب النظر إلى متاع الدنيا الزائلة وزهرتها الفانية؛ لأن ذلك مظنة التعلق بها، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: ١٣١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «النظر إلى الأشجار والخيول والبهائم إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال فهو مذموم؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: ١٣١).

وأما إذا كان على وجه لا ينقص الدين وإنما فيه راحة للنفس فقط؛ كالنظر إلى الأزهار فهذا من الباطل الذي يُستعان به على الحق»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:  
«انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم،  
فهو أجدر<sup>(٢)</sup> أن لا تزدروا<sup>(٣)</sup> نعمة الله عليكم»<sup>(٤)</sup>.

قال النووي - رحمه الله -: «قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير؛ لأن الإنسان إذا رأى من فضّل عليه في الدنيا، طلبت نفسه مثل ذلك واستصغر ما عنده من نعمة الله - تعالى - وحرص على الزيادة ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس.

(١) «مختصر الفتاوى المصرية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٣٥).

(٢) أجدر: أحق.

(٣) تزدروا: تحتقروا.

(٤) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣) واللفظ له.



أنهم كانوا يكرهون فضول النظر، ثم قال: نبئت أن مجاهدًا كان العنكبوت في بيته ثلاثين سنة لم يشعر به<sup>(١)</sup>.

وقدم الأحنف بن قيس من سفرٍ وقد غيروا سقف بيته أو قد حمروا السقائف وخضروها فقالوا له: ما ترى إلى سقف بيتك؟ قال: معذرة إليكم إني لم أره، لا أدخل حتى تغيروه<sup>(٢)</sup>.

فهذا بعض ما جاء في فضول النظر.

ومن النظر ما يكون مكروهاً كالنظر إلى زهرة الدنيا على وجه الاستحسان، ومنها ما يكون مستحباً كالنظر لأثر من قبلنا للعظة والاعتبار، والنظر إلى الأزهار والطبيعة على وجه التفكير والتأمل في خلق الله - سبحانه وتعالى -.

ومنه ما هو محرم كالنظر إلى النساء الأجنبية والأمرد والحسن والنظر إلى العورة ومحل الشهوة.

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٥٥). (٢) المرجع السابق (ص ٣٣٨).

وهذا الأخير الحديث عنه ذو شجون<sup>(١)</sup> ، وأمره معلوم لكل ذي لب .

وبقي كثرة الالتفات سواء بالعين أو بالوجه ، فهو مناف للسمت الحسن بل أمانة على خفة العقل وسوء الأدب .

قال علي رضي الله عنه : «لن يعدم من الأحقق خلتين<sup>(٢)</sup> ، كثرة الالتفات وسرعة الجواب بغير عرفان<sup>(٣)</sup>» .

### ثالثاً - فضول المخالطة:

العزلة عن الناس - أحياناً - وسيلة إلى حفظ اللسان وحفظ البصر وحفظ السمع عن سماع ما يكدر النعم ويملاً القلب من الحنات والأحقاد والعدوان وهي - أي العزلة - مستحبة لحفظ الوقت ومحاسبة النفس .

(١) مظان ذلك كتاب «فتنة النظر» لراقمه .

(٢) الخلّة: الخصلة والعادة .

(٣) كتاب «الآداب» لابن شمس الخلافة (ص ٥٦) .

وهي من أعظم وسائل حفظ السمات لأن الرجل ربما خالط من لا يشاكره فلا يأمن على نفسه الضرر.

وربما سمع كلمة عوراء أيقظت الحمية في نفسه، فلا يأمن من أن يرد بمثلها أو أشد، فأبى سمته بقي له بعد هذا، والسلامة لا يعدلها شيء<sup>(١)</sup>.

قال عمر رضي الله عنه: «خذوا بحظكم من العزلة»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «نعم صومعة الرجل بيته يكف بصره ولسانه»<sup>(٣)</sup>.

وقال مسروق - رحمه الله -: «إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها فيذكر فيها ذنوبه فيستغفر منها»<sup>(٤)</sup>.

(١) الخلطة إذا كانت لنشر العلم وعبادة المريض وتشجيع الجنائز، والإصلاح بين الناس وغير ذلك من وجوه البر فهي غنيمة وليس من العزلة في شيء.

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ١١٤).

(٣) «صحيح كتاب الزهد» للإمام أحمد (ص ٨٩).

(٤) «الزهد» للإمام أحمد (ص ٤٨٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «وأما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع - وذلك بالزهد فيه - فذلك مستحب»<sup>(١)</sup>.

وقال - أيضاً - : «ولابد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن القيم - رحمه الله - : «إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة»<sup>(٣)</sup>.

(١) «فتاوى ابن تيمية» (١٠/٤٠٥).

(٢) المرجع السابق (١٠/٤٢٦).

(٣) «بدائع الفوائد» (ص/٢٣١).

وقال - أيضاً - : «الاجتماع بالإخوان قسمان :

أحدهما - اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت؛  
فهذه مضرتة أرجح من منفعتة، وأقل ما فيه أن يفسد  
القلب ويضيع الوقت.

الثاني - الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها - تزین بعضهم لبعض .

الثانية - الكلام والخلطة أكثر من الحاجة .

الثالثة - أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

بل إن إدمان الخلطة بالناس بلا مسوغ سبب للرياء وطريق إلى الهلاك، قال ابن الجوزي - رحمه الله -: «لا يكاد يحب الاجتماع بالناس إلا فارغ؛ لأن مشغول القلب بالحق يفر من الخلق، متى تمكن فراغ من معرفة

